بسم الله الرحمن الرحيم

كَمْ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ من النُّصوص الحَاثَّةِ على حُسن الخُلق، المُثنِيَة على أصحَابه، الذَّاكِرة مَا لهُم منَ الفضَائل والفوَاضِل وذلك لمَا اشتمَلت عليه من الخُلق الجَميل، وما يترتَّب عليه من المنَافِع والمصَالح العامَّة والخاصَّة.

فمِنْ أجلِّ فوائده: امتثالُ أمرِ الله وأمرِ رسُوله ﷺ، والاقتداءُ بخُلق النبي ﷺ العَظيم، وأنَّه في نفْسِه عبادةٌ عظيمةٌ تتناول مِن زمَان العَبدِ وقتًا طويلًا، وهُو في راحةٍ ونعيمٍ مع حصُول الأجرِ العَظيم.

ومن فوائده: أنهُ يُحبِّبُ صاحبَه للقريب والبَعيد، ويجعَلُ العدُوَّ صَديقًا والبعيدَ قَريبًا، وبه يتمكَّن الدَّاعي إلى الله تعَالى والمُعلِّم للخَيْر من دَعوَته، ويجمعُ الخلقَ إليه بقُلوبٍ راغبةٍ، وقَبولٍ واستعدادٍ لوجُود السَّببِ وانتفاءِ المَانع: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وهُوَ بنفسِه إحسانٌ قدْ يزيدُ على الإحسان المَالي: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ حُسْنُ الْخُلُقِ»(١)، فمتَى اجتمعَ الأمرانِ فهُوَ الكَمال، ومتَى فُقِدَ الإحسان المَالي نَابَ عنهُ حُسنُ الخُلق والإحسانُ الحَالي والمَقالي، فربَّما صارَ لهُ مَوقعٌ أكبر من نفع المَال.

(١) حسّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٦١).

وبالخُلق الحَسنِ، وطُمأنينة القلبِ وراحَته، يتمكَّن من معرفةِ العُلوم التي سَعَى لإدراكِها، والمعَارف التي يُفكِّر في تحصِيلها، وبهِ يتمكَّنُ المُناظِرُ والمُخاصِمُ من إبداء حُجَّتِه وفهم حُجَّة صاحِبِه، ويَستَرشِدُ بذلك إلى الصَّوابِ قولاً وعملاً، وكمَا أنَّهُ سَببٌ لهذَيْن الأمرَين في نفسِه فهُوَ منْ أقوَى الدَّواعِي لحُصُولِهما لمَنْ خَاصَمَهُ أوناظَرهُ: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»(٢).

وبالخُلُقِ الحَسَنِ يسلَمُ العبدُ من مضارِّ العَجَلة والطَّيْش، لرَزانتِه وصَبره ونظَره لكلِّ ما يُمكِنُ من الاحتِمَالات، وتجنُّب ما يُخشى ضَررُه.

وبالخُلُقِ الحَسَنِ يتمكَّنُ من الوَفاءِ بالحُقوقِ الوَاجبَة والمُستحَبَّة للأهلِ والأولادِ والأقاربِ والأصحَابِ والجيرانِ والمُعامَلين وسائرَ مَنْ بينهُ وبينَهُمْ مُخَالطَةٌ أو حَقٌّ، فكَم مِن حُقُوقٍ أُضيعَت منْ جرَّاء سُوءِ الخُلُق!

وإنَّ حُسنَ الخُلق ليدْعُو إلَى صِفةِ الإنصَافِ، فإنَّ صَاحِبَ الخُلقِ الحَسَنِ يسْلمُ غَالبًا من الانتِصَار لنفسِه والتعصُّبِ لقَولِه، لأنَّ الانتصَارَ للنَّفْسِ والتعصُّبَ يحمِلُ على الإعتِسَافِ وعدَمِ الإنصَاف.

وإنَّ صَاحِبَ الخُلقِ الحَسَنِ في راحَةٍ حاضِرةٍ ونعيمٍ عاجِلٍ، فإنَّ قلبَهُ مُطمئِنٌ، ونفسَه سَاكنةٌ، وهذا مادَّةُ الرَّاحَة العَاجلَة وطيب العَيْشِ.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٩٣).

كمَا أنَّ سيِّءَ الخُلُق في شقَاءٍ حاضرٍ، وعذابٍ مُستَمِرٍ ونزاعٍ ظاهريٍ وباطني معَ نفسِه، وأولادِه، ومُخالطِيه، يُشوِّشُ عليه حياتَه ويكدِّرُ أوقَاتَه، معَ ما يترتَّبُ على ذلِك مِنْ فواتِ تلكَ الآثارِ الطيِّبة والتَّعرُّضِ لضدِّها.

وبهذَا ونَحوِه يتبيَّنُ معنَى قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»(٣).

فإنْ قُلتَ: (إذَا كَانَ حُسْنُ الخُلقِ لهُ هذهِ الفضَائل والآثار الحَسَنة، فهَلْ للاتصَاف بِهِ أسْبابٌ يَتمكَّن العَبدُ من فِعلها أو هُو مُجرَّدُ موْهِبةٍ؟)

قُلتُ: ما مِنْ صفةٍ حميدةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ إلاَّ وقدْ يسَّر اللهُ للعبدِ حُصُولَها ونَهَّجَ الطُّرقَ المُوصِلة إليهَا، وأعانَ عليهَا بكُلِّ وسيلةٍ، وكُلَّمَا كَمُلَت الصِّفات، كثُرت الطُّرق المُفضِيَة إليهَا؛ معَ أنَّ الغرائِزَ والطَّبائعَ الأصليَّة أعظمُ عَونٍ عَليها، وصَاحِبُها إذا سعَى أدنَى سَعْيٍ أدركَ مُرادَهُ.

فاعلَم أنَّ من أعظَم ما يُعِين على هذا الخُلق الجَميل: التفكُّرُ في الآثار السَّابقَة المُترتِّبة عليه.

فإنَّ معرفَةَ ثمراتِ الأشياء وحُسنِ عواقِبها من أكبر الدَّواعي إلى فِعلها والسَّعي إليها، وإنْ عَظُمَ الأمرُ واعترضَت الصُّعُوبات،

(٣) رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود».

فإنَّ المَراراتِ إذا أفضَت إلى ضِدِّها هَانَت وحَلَتْ، وكُلَّما تصعَّبت النَّفسُ عليه ذَكَّرها تلكَ الآثار ومَا تَجتَنِي بالصَّبر مِن الثِّمار، فإنَّها تلينُ وتنقادُ طائعةً، مُنشرحةَ الصَّدرِ، مُحتسِبةً، راجيَةً حُصُول تلك المطالب.

ومن أعظم الأسباب: عُلُوُّ الهمَّةِ ورغبةِ العبد في مكارم الأخلاق، وأنَّها أولى ما اكتسبتهُ النُّفوس وأجلُّ غنيمةٍ غَنِمها المُوفَّقُون، فبحَسبِ قُوَّة رغبَته في ذلك، يسهُلُ عليه نَيْلُ هذا الخُلق الجَميل.

ومن الأسباب: أنْ يتأمَّل: هل يجلبُ لهُ سُوء الخُلق إلاَّ الأسفَ الدَّائِم، والهمَّ المُلازم، والآثارَ القبيحَة، فيربأُ بنفسِه عن هذا الخُلق الذَّمِيم.

ومن الأسباب: رياضةُ النَّفسِ وتمرينُها على هذا الخُلق، وتوطينُها على كُلِّ سببٍ يُدرِكُ به هذا الخُلق الفَاضِل، فيوطِنُها على مُعارضَاتِ الأقوال وأنَّهُ لابدَّ من مُخالفتهم في العُلوم والإيرادات، ولابدَّ أيضًا من أذيةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ، فليتوطَّن على تَحمُّل الأذَى، وليعلَم أنَّ الأذى القولي لا يضُرُّ إلاَّ من قَاله، وإنَّ مِنَ الحَزمِ والقُوَّة أنْ يكُون الإنسانُ بحيثُ لا يتأثَّر بكلامٍ يُقصَدُ به إخفاظُهُ وإغضابُه.

بل يَعلَم أنَّهُ إذا غَضِبَ أو تأثَّر فقد أعانَ المُتكلِّمَ على نفسِه، وإن لم يُبالي به ولم يُلقِهِ بالَه، ولم يهتمَّ به، ويكترِثْ به، فقد قابَل القائِلَ بما يكرَهُهُ؛ لأنَّ جُلَّ مقصدِ عدوِّهِ إيلامُ قلبه وإدخال الهمِّ والغمِّ والخوفِ على قلبه، فكَما يسعى بدفع ما يُريد إيلامَ ظاهرِه

فليسعَ بدفعِ مَا يُريد إيلامَ باطنِه بتركِ الاهتمامِ بهِ.

وما أنفعَ في هذا المقَام وغيرِه أن يجعَل الإنسانُ نصبَ عينيْهِ وجُلَّ مقصَدِه الإبقاء على قلبِه من المُشوِّشات والوَاردات المؤلِمَة، وأن يحفَظ راحَة قلبه بكُلِّ ما يُفضي إلى الرَّاحة، مِن تحصِيل الأسبابِ المُريحَة للقلبِ ودفعِ كُلِّ مُعارضٍ لَها.

فإنَّ راحَة القلبِ أصلُ طيبِ العَيْشِ في هذه الدَّار.

فلَوْ كَان الإنسانُ بكلِّ نعيمٍ، وتوفَّرت لديهِ أسبابُ الرَّاحة، وقلبهُ في قلقٍ وحَرَجٍ، لا يخرُجُ مِنْ همٍّ إلاَّ وقعَ في آخر، ولا يفرحُ بمَوجُودٍ ومحبُوبٍ إلاَّ وجدَ حشو قلبِه ما يُكدِّره؛ فإنَّه حتَّى الآن لم يصِل إلى المقصُود الذي يسعَى لهُ أهلُ العُقُول الرَّاقية؛ فإنَّهم يسْعَوْن أولًا لراحةِ قُلوبهم وطُمأنينتِها بالإنابَة إلى الله في مُهمَّاتِهم ومُلمَّاتِهم وأحوالِهم كُلِّها، ويُتمِّمُون ذلكَ بالحِلمِ وحُسنِ الخُلق وحِفظ قُلوبهم من كُلِّ مُشوِّشٍ يُكدِّر عليهم حيَاتهم الطيِّبة، ونعيمَهُم العَاجِل والآجِل.

فتأمَّل في بعض قَصَص الأخيَار، وما هُمْ عليه من الحيَاة الطيِّبة سَواءً كانُوا في فقرٍ أو غِنى، أو شِدةٍ أو رخاءٍ، وحيثُ تنقَّلت بهم الأحوال، فإنَّكَ تجدُ الواحِدَ منهُم أبسطَ النَّاس خُلقًا وأروحَهُم نفسًا وأقرَّهُم عينًا، بل تجدُ مَنْ هُو في يَسارةٍ منهُم وفقرٍ راضيًا قانعًا غيرَ مُتسخِّطٍ على الله وعلى الخَلْقِ، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد:٢١]

الفتاوى السعديّة: (٦٥٦-٦٦١)

حُسْنُ الخُلُق

للشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله
(١٣٠٧-١٣٧٦هـ)

طبعت على نفقة بعض المحسنين جزاهم الله خيرا